د. شاكر النابلسي *

الانتخابات العراقية... درس آخر في التطبيق الديمقراطي

-1-

لعلي لا أغالي إذا قلت، إن الديمقراطية العراقية، هي من أغلى الديمقراطيات في التاريخ تكلفةً في الحجر والبشر والمال، إن لم تكن أغلاها قطعاً، في العصر الحديث.

فأوروبا- كل بلد على حدة- لم تدفع ثمن الحرية والديمقراطية الغالي، الذي دفعه العراق. كما لا يوجد بلد عربي- عدا الجزائر- دفع الثمن الغالي للحرية والديمقراطية، الذي دفعه العراق. لذا، فالحرية والديمقراطية غاليتان وعزيزتان على نفوس العراقيين، وهم لن يتخلوا عنهما، أو يكفروا بهما، في يوم من الأيام. وإن حاولوا أن يفعلوا ذلك، فدماء أبنائهم، وآبائهم ستذكرهم بها. ومياه دجلة والفرات، التي شهدت على كل هذه التضحيات ستذكرهم بها. ونخيل العراق الباسق، الذي ارتوى بدماء الفداء للحرية والديمقراطية سيذكرهم بها. لذا، فمن غير المستغرب أو المستهجن، أن نرى إصرار العراقيين والعراقيات من كل الأطياف، ومن مختلف الأعمار، على تحديهم، وحرصهم على ممارسة حقهم الانتخابي، سواء في الانتخابات التشريعية الماضية 2005، أو في التصويت على الدستور للعراق الجديد، أو في انتخاب مجالس المحافظات التي جرت قبل أيام.

-2-

الشكر كل الشكر، موصولٌ لإدارة الرئيس بوش، التي دفعت مئات المليارات من الدولارات، وآلاف الضحايا، من أجل تحرير العراق من العبودية والدكتاتورية، كما دفعت في الحرب الثانية وبعدها (مشروع مارشال) من أجل تحرير أوروبا من الدكتاتورية النازية والفاشية. وهذا الشكر رغم الأخطاء الإدارية والعسكرية، التي صاحبت حملة «حرية العراق»، وهي أخطاء قاتلة، ولكنها متوقعة لدولة تخوض لأول مرة تجربة من هذا القبيل، في النصف الثاني من القرن العشرين. فقد كانت تجربتها السابقة في اليابان لتحريرها من العسكرتاريا، في نهاية النصف الأول من القرن العشرين، لا تشبه التجربة العراقية. وكانت ظروفها ومناخها وقواعدها وسكانها، يختلفون كل الاختلاف عما كان قائماً في العراق. ولكن، لو كانت إيران أو تركيا (وارثة الإمبراطورية العثمانية) هي التي فعلت ما فعلته أميركا في العراق، وارتكبت الأخطاء القاتلة نفسها، لما كانت كراهيتنا لها، تصل إلى الحد الذي وصلت فيها كراهية العرب لأميركا. وهي- للعلم- كراهية كانت قائمة منذ 1967، عندما بدأت أميركا في عهد الرئيس ليندون جونسون، تتدخل بشكل مباشر ومكشوف لمصلحة إسرائيل، ضد العرب والفلسطينيين.

-3-

لا ننكر أن الديمقراطية في العالم العربي وفي العراق كذلك، في مأزق كبير. وهذا المأزق يتمثل في استفادة الأصولية الدينية/السياسية من محاولات العالم العربي- بضغط كبير من الغرب خصوصاً من أميركا- تطبيق بعض آليات الديمقراطية، وهي شفافية الانتخابات وابتعادها عن التزوير، ومحاولة الإشراف ومراقبة الانتخابات، التي تجري في أنحاء متفرقة من العالم العربي، من قبل لجان من الاتحاد الأوروبي، وشخصيات مهمة من أميركا كالرئيس السابق جيمي كارتر، الذي شهد الانتخابات الفلسطينية 2006.

ولكن هذه الآلية (الانتخابات) الديمقراطية، تكاد تصبح وبالاً على العالم العربي، لأنها في آخر المطاف تُمكّن الأحزاب الأصولية/الدينية/السياسية، من اكتساح الانتخابات، والفوز فيها، وبالتالي الفوز بكرسي الحكم. وهذا ما حدث في الجزائر، ومصر، والعراق، وفلسطين. كما حدث في الانتخابات البلدية السعودية عام 2005. ولذا، لجأت السلطات السعودية، إلى تعيين أعضاء مجلس الشورى عام 2005 ، لأنها لو تركت الخيار للشارع السعودي، فسيأتي جلُّ أعضاء المجلس من الأصوليين الدينيين، كما تمَّ في الانتخابات البلدية تماماً.

-4-

تطرّق إلى مأزق الديمقراطية العربية هذا، الكاتب الأميركي جويل برينكلي الحاصل على جائزة «بوليتزر»، وأستاذ الصحافة في جامعة ستانفورد الشهيرة، حين تساءل عن تعزيز الديمقراطية في الشرق الأوسط، فكان جوابه، بأن التاريخ الحديث للممارسة الديمقراطية في الشرق الأوسط ليس مشجعاً، نتيجة لسيطرة الأحزاب الأصولية/الدينية/السياسية على الشارع العربي، خصوصا في الجزائر، ومصر، وفلسطين، والعراق، وإيران، ودول الخليج العربي.

ويلاحظ برينكلي أيضاً، من خلال عمله في الصحافة، وزياراته المتعددة لمنطقة الشرق الأوسط، أن هناك مأزقاً آخر للديمقراطية الشرق الأوسطية. فالأصوليون الإسلاميون ليسوا وحدهم من يخشى الغرب من تسلمهم زمام الحكم، ولكن هناك من الديمقراطيين الليبراليين، الذين يتميزون بالتحيز العنصري، وما هو أسوأ من ذلك.

ويتساءل برينكلي:

- هل نريد أن يحكم هؤلاء الناس؟ وهل ترغب إدارة أوباما بالفعل، في تعزيز الديمقراطية بمنطقة الشرق الأوسط؟

ويجيب برينكلي بقوله:

- في معظم الحسابات، لن يقدم أوباما على ارتكاب نفس الأخطاء التي ارتكبها بوش. وبالنسبة لإدارة بوش، يعني تعزيز الديمقراطية، تشجيع وتقوية الدول على إجراء الانتخابات. وهذا ما حدث في مصر، وفلسطين. ولكن الديمقراطية، لا يمكن أن تزدهر في الدول التي لا تمتلك طبقة وسطى، أو تأريخاً من النقاش السياسي الحر. وفي هذه الأماكن، يمثل المسجد أو الكنيسة ملجأً، يمكن الوصول إليه في معظم الأحيان، وتلقّي أفكار منظمة. وبسبب عدم قدرة الناس على معارضة النظام بشكل علني، تصبح أصوات علماء الدين، سواء كانوا متشددين أم معتدلين، أهم الأصوات السياسية.

وينتهي برينكلي إلى القول: «إن خلق الديمقراطيات في منطقة الشرق الأوسط، مشروع طويل للأجيال القادمة. ولكن هذا المشروع، لن يبدأ إلا إذا اتخذنا الخطوات الأولى الآن، وهي ربط المساعدات المالية، والدعم السياسي، بخطوات الإصلاح السياسي». وهو ما يطالب به البعض في الشرق الأوسط.

-5-

كانت انتخابات مجالس 14 محافظة، التي تمت أخيراً في العراق، مهمة أهمية كبرى خاصة بالعراق ذاته. ومن عناصر هذه الأهمية:

1- أنها أول انتخابات تجري في العراق الجديد، بعيداً عن تهديد العصابات الإرهابية، وبعيداً عن حراب الاحتلال، كما كان يقال عن الانتخابات التشريعية 2005. ولذا، فالإقبال على انتخابات مجالس المحافظات، كان كثيفاً، والإيمان بنزاهتها كان كبيراً.

2- كان التنافس في هذه الانتخابات شديداً غير مشهود. وكان هناك حوالي 14400 مرشح، موزعين على 400 قائمة، يتنافسون على 440 مقعداً في مجالس المحافظات، مما أدى إلى أن تفرز الانتخابات عراقاً أكثر تمثيلاً لأبنائه على اختلاف انتماءاتهم. وهذا مظهر صحة سياسية ديمقراطية.

3- اشتراك كل فئات الشعب وتكويناته المختلفة في الانتخابات بمن فيهم السُنَّة، الذين كانوا يُحجمون عن الاشتراك في الانتخابات الماضية. وهذا دليل صحة سياسية ديمقراطية.

4- رغم هيمنة القوى الدينية على مقاعد مجالس المحافظات، فإنه رُصد صعودٌ ظاهرٌ للقوى العلمانية والمستقلة، خصوصاً في المناطق الغربية السُنيَّة والشيعية أيضاً. وظهرت الأحزاب السياسية ذات البرامج السياسية الداعية إلى القانون والنظام في هذه الانتخابات، أكثر من ظهور الطوائف الدينية ذات البرامج التقليدية المستهلكة، كما كانت عليه الحال في الانتخابات التشريعية 2005. كما أن الأحزاب الدينية الطائفية، فقدت كثيراً من شعبيتها. وهذا مظهر آخر للصحة السياسية الديمقراطية.

* كاتب أردني

د. مأمون فندي *

التشيع السياسي!

هل تشيع خالد مشعل؟ سؤال يتردد كثيرا هذه الأيام. التشيع المذهبي جزء من تراث الإسلام ومن الفقه، فالمذهب الجعفري لا يبعد كثيراً عن مذاهب أهل السنة، لكن المشكلة اليوم في حالة المنافسة بين أميركا وإيران على تقسيم العالم العربي إلى مناطق نفوذ لكل منهما، حيث تصبح فيها مسألة التشيع السياسي أمراً في غاية الأهمية والخطورة. فهذا عضو برلمان إيراني يقول إن الجزر الإماراتية المحتلة هي جزر إيرانية، وعضو برلمان إيراني آخر يقول إن مملكة البحرين ما هي إلا محافظة من محافظات إيران، مثل ما قاله صدام تقريباً عن الكويت قبل غزوه لها عام 1990.

ما يقوله الإيرانيون اليوم مخيف جداً، فقد طالب علي لاريجاني رئيس البرلمان الإيراني، أميركا بألا تلعب مع إيران لعبة الملاكمة، وأنه عليها بدلاً من ذلك أن تلعب معها لعبة الشطرنج. ترى ما هي جائزة الكاسب في لعبة الشطرنج هذه؟ هل هي جزء من العالم العربي؟ أو بمعنى أكثر عنصرية ما هي قطع الشطرنج التي يريد كل من لاريجاني وأميركا تحريكها؟ أليست الدول العربية في هذا التصور هي قطع الشطرنج؟ أو ليست الجماعات التي تشيعت سياسياً في عالمنا العربي من أمثال «حماس» و«حزب الله» وبعض أعضاء التنظيم الدولي لجماعة «الإخوان المسلمين»؟ لاريجاني يقول للأميركيين صراحة، إن هذه الحركات والجماعات هي قطع شطرنج تحركها إيران وقتما تشاء. أوراق في أيديها للعب، تحركها وقتما تحب وتلعب بها متى ما كان في ذلك فائدة لها. المستفز في حديث لاريجاني، هو تلك العنصرية الفارسية الاستعلائية التي ترى العالم العربي برمته مجرد ساحة للعب بينها وبين أميركا.

ربما هذا الذي دفع بالرئيس مبارك أن يذهب إلى البحرين منذ أيام، متوقفاً في الإمارات التي تحتل إيران جزرها الثلاث أبوموسى وطنب الصغرى وطنب الكبرى، لأن «البجاحة» الإيرانية في النظر إلى البحرين على أنها محافظة من محافظات بلاد فارس، أمر مقلق بالنسبة لمصر ولدورها في الإقليم. وربما أيضاً للسبب نفسه، أرسل الملك عبد الله بن عبد العزيز، رئيس جهاز المخابرات السعودي الأمير مقرن بن عبد العزيز إلى سورية لمحاولة استمالتها بعيداً عن إيران.

إيران ليس لديها نفوذ تقليدي في العالم العربي، ولكن إيران بعد الثورة نجحت في مشروعين، الأول هو بناء نموذج «حزب الله» في الدول العربية المختلفة، وكان أنجحها نموذج «حزب الله» اللبناني. أما المشروع الثاني، فهو مشروع التشيع السياسي، أي أن تلعب إيران على القضايا الخاصة بالمعارضات العربية المختلفة، خصوصا ذات التوجه الإسلامي منها مثل «حماس» وجماعة «الإخوان المسلمين» أو حتى «الجماعة الإسلامية»، رغم أن الأخيرة أظهرت حتى الآن حصافة سياسية أفضل من «الإخوان المسلمين» في مسألة التشيع السياسي.

وكما ذكرت في مقالات سابقة، تغلغلت إيران اليوم وسط المجتمعات السُنية التقليدية بدرجة مخيفة فيها تهديد صريح للأمن القومي العربي عامة، والمصري والسعودي خصوصاً. عندما انتقد الشيخ القرضاوي إيران، جاء الهجوم عليه من الإسلاميين الذين شاركوه في السابق عداءه للغرب، وهنا انقسمت الجماعات. هذا دليل واضح على أن قضية هؤلاء ليست الإسلام لا السُنَي منه ولا الشيعي، ولكنها السياسة. فلو كانت القضية إسلاما أو مذهبية، لانتفض السُنة لمناصرة السُنة، لكن ما نراه اليوم أن الولاء السياسي لا الولاء المذهبي هو المحرك هنا، وأموال إيران لا الغيرة على الدين هي التي تحرك الجموع الآن. إننا اليوم في حالة جديدة لا يمكن تسميتها إلا بالتشيع السياسي.

العالم العربي يقع اليوم بين مطرقة الفرس وسندان «الأميركان». ورغم أن كثيرين من بيننا يتصدون لتحليل المشروع الأميركي الهادف إلى تقسيم العرب من الخارج، فإنهم يخجلون من الحديث المباشر عن المشروع الفارسي الهادف إلى تقويض العالم العربي من الداخل. على سبيل المثال، قرأت أن صحيفة مصرية رفعت مقال رأي من صفحاتها، لأن الكاتب انتقد سلوك القيادة الإيرانية، رغم أن الصحيفة ذاتها تنتقد القيادة المصرية، وبالاسم، في كل يوم وليلة. تُرى كيف لنا أن نفسر أن انتقاد آية الله خامنئي محرم تماماً في جريدة مصرية، بينما انتقاد الرئيس مبارك فيها أمر عادي؟ لقد كتبت في السابق أن مصر اليوم هي معقل اللوبي الإيراني في المنطقة، وفيها من رجال إيران من هو قادر على أن يخيف ويبتز كل من ينطق بكلمة ضد المشروع الإيراني. إن لم نستطع مناقشة قضية التشيع السياسي بوضوح في العالم العربي، سنجد أنفسنا في حالة تخبط عارمة فيما يخص أمننا القومي، سواء على مستوى الدولة الواحدة أو على مستوى الإقليم برمته.

* مدير برنامج الشرق الأوسط بالمركز الدولي للدراسات السياسية والاستراتيجية IISS

بلال خبيز *

أميركا وحُسَّادها

تسيبي ليفني لم تفز، ونتنياهو سيحكم من دون قدرة على الحكم، وحزب العمل المؤسس لدولة إسرائيل أصبح حزب الأقلية. يقولون إسرائيل في المأزق. ما هو المأزق؟ ليفي جدعون محلل هآرتس اليساري، يحدد مأزق إسرائيل في أنها تدير كل سياساتها بجيشها. ما العمل حيال التهديد الذي قد ينجم عن امتلاك إيران قنبلة نووية؟ يقوم الجيش بقصفها، وماذا لو عادت بعد إيران بعد بضع سنوات إلى التسلح؟ يقوم الجيش أيضاً بقصفها. دولة مازالت تبحث عن هويتها في المنطقة، ومازالت لما تكتسب بعد اعتراف المحيط بشرعيتها، لا تحسن أن تفاوض بغير السيف. إنها دولة في المأزق.

لكن هذا المأزق الذي تعيشه إسرائيل ليس هو المأزق الحقيقي، فهي لا تجد زعيمها وقائدها المعاصر. السيد حسن نصرالله قال عن شارون الذي مازال في الغيبوبة: هذا آخر ملوك إسرائيل. الوصف صحيح حتى الساعة، فإسرائيل ودعت آخر ملوكها في غيبوبة الموت السريري، لكنها لم تنجح في تنصيب ملك جديد. على نحو ما، مازال جميع من في إسرائيل يحكمون من أرشيف شارون. ما العمل حيال التهديدات؟ نضرب بيد من حديد، ثم ماذا؟ لا شيء نضرب أيضاً وأيضاً، لكن إدراة أميركية جديدة لا تصفق، وتعرف إسرائيل جيداً أنها لن تصفق، لكل حماقاتها، لن تمول أيضاً حرباً حمقاء أو استخداماً مفرطاً للجيش بسبب ومن دون سبب.

هذه حرب غزة. لم تنتصر «حماس» لكن إسرائيل لم تنتصر أيضاً، الفلسطينيون يقولون إن إسرائيل في حربيها الأخيرتين، في لبنان وغزة، عمدت إلى كي الذاكرة اللبنانية والفلسطينية. كل صاروخ يطلق ضد الأراضي الإسرائيلية يسبب كماً من الآلام يفوق الوصف. وهي آلام تمتد طويلاً: مازال الفلسطينيون في غزة يقيمون في عراء الريح والطقس الماطر. هذه غزة هاشم، حباها الله ببحر ومناخ ساحلي، لكن البرد يقطع العظام حتى على ساحل غزة.

المقاومة باتت تشكو من الصقيع. هي أصلاً لم تنطلق من حسن دراية وتبصر، والأرجح أن مثل هذه المقاومات كانت تبتغي طوال الوقت كرسياً وثيراً وطويلاً تحت شمس أميركا. لقد انتهت مقاومات أميركا الراديكالية منذ أواخر الثمانينات، ومقاومات اليوم، وممانعاته أيضاً، لا تطمح إلى أكثر من التنعم بالشمس الأميركية بشرط أن يفرد لها حيز مريح. وإلا ما الذي يفسر هذه النبرات الخافتة في كل مكان، من طهران إلى دمشق وصولاً إلى ضاحية بيروت الجنوبية؟ إنه هجوم أوباما السلمي، هجوم يقول إن العالم متسع للجميع، وإن الشمس تشرق على كل الناس.

لكن إسرائيل حائرة كيف تضع كرسيها وتستريح، فلا مجال للمقارنة بين ليفني وأوباما. هي حاولت أن توحي بأنها النسخة الإسرائيلية من أوباما، تكبره ببضع سنوات، لكنها أفتى المتنافسين على رئاسة الحكومة، وربما تكون أكثرهم حيوية. لكنها ليست أوباما إسرائيل. الأمر مع أوباما لا يتصل بالفتوة والشباب، بل يتصل بالرؤية إلى العالم، الرؤية التي تأخرت زمناً طويلاً في أميركا. انتظرها العالم أكثر من عهدين طويلين لكن الرئيسين السابقين لم يبادرا إلى تلقف اللحظة التاريخية المناسبة، فمنذ أوائل التسعينيات لم يعد ثمة أعداء لأميركا في العالم. وأميركا جورج بوش وبيل كلينتون لم تقاتل أعداءً، بل قاتلت حاسدين وغاضبين، قاتلت أميركا طوال العقد ونصف العقد الماضيين من كانوا يحسدونها، في الاقتصاد والتعليم والصناعة والتكنولوجيا، وقاتلت أيضاً من كانوا يلومونها على انحيازها لغير مصالحهم، لكنهم في النهاية يتطلبون الدور الأميركي بشدة، بشرط أن يلحظ مصالحهم من دون أن يغمط المصالح الأميركية أو يدفعها إلى الخلف. وعلى هذا كانت حرب غزة في أحد أسبابها عراضة بالدم الفلسطيني أمام أوباما.

الطرفان المتورطان في تلك الحرب كانا يريدان تنبيهه إلى أن الجرح في هذه المنطقة حار ونازف ويتطلب العناية الأميركية، والطرفان جربا الوسيلة القديمة نفسها، التي هي من عمر هذا الصراع. طرف يتمسك بحقه في الإيذاء الرمزي، وطرف يتمسك بحقه في الإبادة.

النتيجة: طرفان مهزومان... إسرائيل تفتقد قائدها الذي ينتقل بها من عالم الأمس إلى عالم اليوم، والمقاومة التي تجابهها تفتقد قدرتها في أن تكون معاصرة أصلاً. وعلى نحو ما تكون القنبلة النووية الإيرانية مهراً مناسباً للنفوذ الإيراني في المنطقة، تبدو المقاومة المسلحة ضد إسرائيل كما لو أنها مفرقعات نارية للفت الانتباه الأميركي أيضاً.

إسرائيل تقاد اليوم من أرشيفها، لكنها تعرف أن أزمتها عميقة وبالغة الشدة، أما نحن، فنعيش في قبو أرشيفنا القديم، لكن بعض قادتنا يظنون أن الشمس ليست أثر من كوة في أعلى الجدار.

* كاتب لبناني

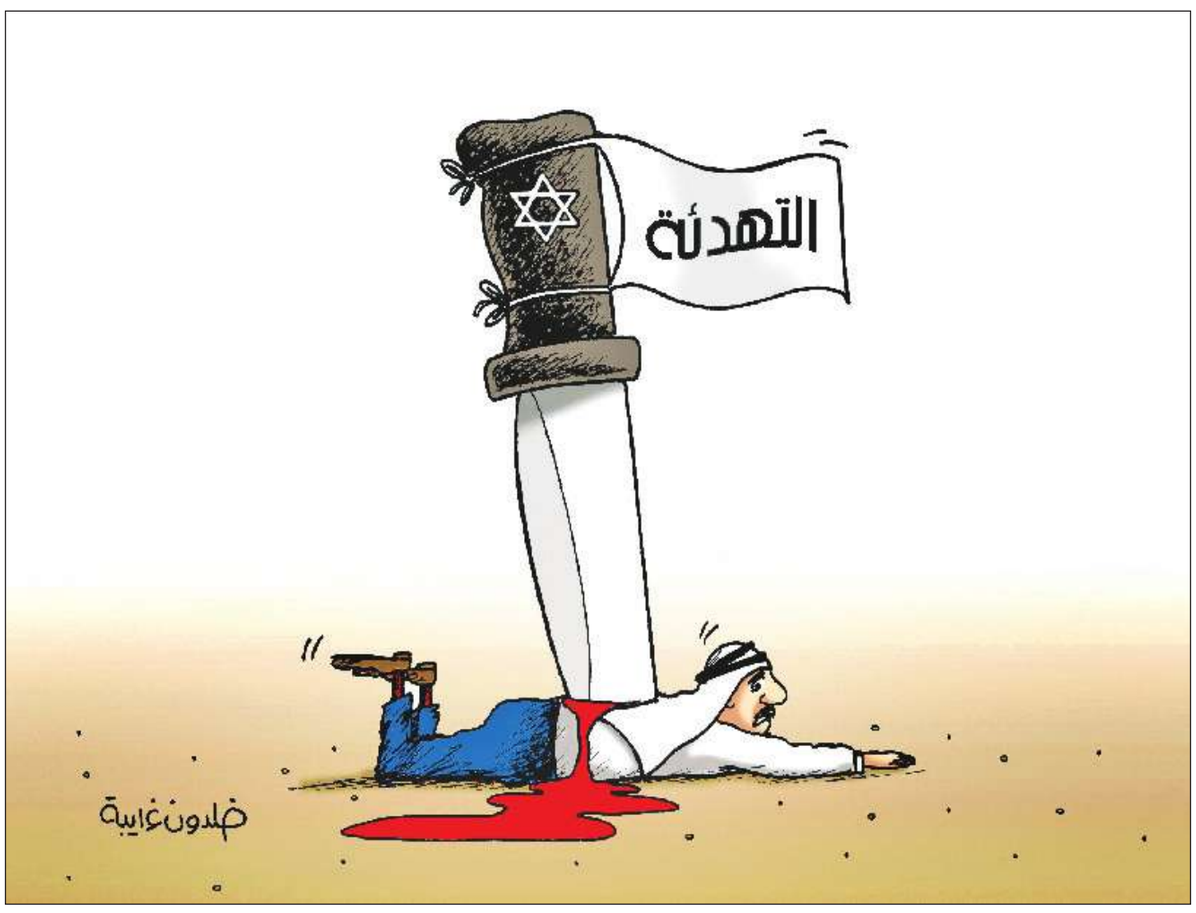

علي بلوط *

الناخب الإسرائيلي اختار الحرب

من النادر أن تجمع أجهزة الإعلام الغربية على تحليل موضوع ما مثلما أجمعت على القول، وبأصوات مختلفة، على أن نتيجة الانتخابات الإسرائيلية وفوز اليمين المتطرف يقود إلى مزيد من التعقيدات في الشرق الأوسط، ويقضي على فرص السلام وربما يشعل حرباً جديدة. فالانتخابات الإسرائيلية أظهرت، بما لا يقبل الشك أو النقاش، أن الشارع الإسرائيلي مختلف على أسلوب التعامل مع الفلسطينيين ومع العرب، لكنه متفق على استخدام القسوة المفرطة في المرحلة القادمة، حتى لو أدى ذلك إلى فتح أبواب الجحيم.

وفي المحصلة النهائية فإن التحليل الإعلامي يتفق على نقطة بارزة، وهي أن «كرة الحرب والسلام» تقترب بشكل مثير من الشباك الأميركية. فهل في مقدور إدارة أوباما أن تتعامل مع هذا الوضع وبالسرعة المطلوبة، وبالتالي تعيد إسرائيل إلى «بيت الطاعة»؟ الجواب لدى واشنطن وحدها دون غيرها من العواصم العالمية.

«إن نتيجة الانتخابات هي الأسوأ في تاريخ إسرائيل لأنها تضع إدارة أوباما في موقف حرج قد تضطر معها إلى تسريع خطواتها في استعادة جو السلام». (مجلة «التايم» الأميركية في عددها الأخير الصادر في 11 فبراير الحالي) بينما ذكرت بقية أجهزة الإعلام الغربية على اختلافها أن طبول الحرب بدأت تقرع في المنطقة.

من المفيد جداً مراقبة ما يجري على الساحة السياسية الإسرائيلية في الأسابيع القادمة، فبالرغم من صعوبة حسم من يشكل الحكومة الجديدة: نتنياهو أم ليفني، فإن أصواتاً خافتة بدأت تصدر عن المؤسسة الإسرائيلية، خصوصاً المؤسسة العسكرية، تدعو إلى تشكيل حكومة اتحاد وطني تضم كل الأحزاب، بما فيها حزب ليبرمان المكروه تقريباً من الجميع. وإذا حصل ذلك فإنه مؤشر مهم مضاف إلى احتمالات الحرب، فإسرائيل درجت منذ إنشائها على تناسي خلافات أحزابها والتطاحن على المكاسب السياسية والمادية عندما يظهر شبح الحرب. حصل ذلك في حرب السويس 1956 وفي حرب الأيام الستة 1967 وفي حرب يوم الغفران 1973، وهو تقليد تفرضه المؤسسة العسكرية الإسرائيلية التي لها الكلمة الفصل في لعبة الحرب والسلم، وفي كل ما يتعلق بالشؤون الأمنية. هذا يعني أن استمرار الخلافات حول تشكيل الحكومة «مؤشر جيد» للذين مازالوا يأملون في سلام عادل وشامل مع الدولة اليهودية، لأنه يبعد شبح الحرب، ويعطي الولايات المتحدة مزيداً من الوقت لإقناع إسرائيل بالعودة إلى بيت طاعتها.

* * *

قبيل توجهها إلى صندوق الاقتراع للإدلاء بصوتها قالت زعيمة حزب كاديما الإسرائيلي: «إن الجو مليء بالحقد وبالكراهية (تعني جو إسرائيل)، وهو شيء جديد في إسرائيل». ثم تابعت في تصريح لها لأحد أجهزة الإعلام التابعة للقيادة العسكرية: «إنه حقد أعمى وكره مسموم يجتاح إسرائيل كمرض الطاعون».

لقد أصابت ليفني كبد الحقيقة في إعطاء الوصف الواقعي للمجتمع الإسرائيلي. فالانتخابات الأخيرة أعطت مؤشرات مهمة من التشرذم السام الذي بات مسيطراً على المجتمع المدني، حيث لم ينجُ منه المجتمع العسكري، خصوصاً الجنود والضباط الذين ينتمون إلى الجيل الجديد، والذين صنعوا «معجزة» صعود حزب «إسرائيل بيتنا» إلى المرتبة الثالثة في الكنيست، وأعطوا مفتاح تشكيل الحكومة الجديدة إلى ليبرمان الذي مازال ينادي بأعلى صوته بضرورة تهجير عرب فلسطين 1948 الذين باتوا يشكلون عشرين في المئة من تعداد الإسرائيليين، وذلك تمهيداً لإقامة دولة يهودية صافية العقيدة والأصل والدم.

ليفني أظهرت استغراباً وحزناً على وجود هذه الكمية من سموم الحقد في الجسم المدني الإسرائيلي، وهذا يدل على ضيق أفقها في فهم سيكولوجية شعبها، فالسم الذي طبخته إسرائيل، ومازالت، لتصديره إلى العالم العربي، كان من الطبيعي أن يرتد إلى دولتها. ألم يقل القدماء إن طابخ السمّ آكله، فأهلاً وسهلاً بها وبدولتها التي كسبت عن جدارة عضوية النادي العربي في البغض والشرذمة والفوضى وعدم الرؤية.

إن انضمام المجتمع الإسرائيلي إلى نادي الحقد والبغضاء يعني أن المنطقة كلها لم تعد بعيدة عن حافة الجنون المطلق، فإسرائيل في ظل «الحكومة القومية» التي نصّب نتنياهو نفسه رئيساً لها قبل ظهور نتيجة الانتخابات وإعلانها رسمياً، قد عادت إلى أحلامها التلمودية، ووضعت نفسها مرة جديدة في مسار تحقيق نبوءات العهد القديم.

إن نتنياهو، المعروف بإغراق نفسه في الأحلام الوردية، لم تنفع معه السنين العشر التي قضاها خارج الحكم في استعادة جزء من العقلانية والواقعية، ففي التسعينيات عبّر نتنياهو عن عدم رضاه على موقف اتخذه الرئيس الأميركي الأسبق كلينتون، فسافر على أول طائرة من تل أبيب إلى واشنطن ليدلي بتصريح جنوني في قلب العاصمة الأميركية: سأحرق واشنطن إذا لم تصحح موقفها الأخير من إسرائيل، وكانت النتيجة غيابه عن رئاسة الحكومة الإسرائيلية لمدة عشر سنوات، وإشعال النار في جسور اتصاله مع واشنطن إلى الأمس القريب عندما عادت نوبات الجنون لتسيطر على الناخب الإسرائيلي الذي رفعه مرة ثانية إلى مرتبة القيادة الثانية، بالرغم من الضغط الخفي الذي مارسته واشنطن على «ناخبيها» الإسرائيليين لإبعاده لمصلحة ليفني، ومازال نتنياهو على عناده الجنوني، حيث نُقل عنه قوله في تصوير نتيجة الانتخابات: «لقد ربحت ليفني ملكية الشقة (يعني رئاسة الحكومة) لكنني ربحت في المقابل المفتاح». هذا القول يعطي صورة كاملة ومختصرة عن الواقع الحالي في إسرائيل ما بعد الانتخابات.

ما يُراد قوله في هذا المجال أن واشنطن تستطيع أن تمارس الضغط على إسرائيل عندما تريد، فالذي يتمكن من الضغط على الناخب الإسرائيلي، بإمكانه أن يفعل الشيء ذاته وبسهولة أكثر على صانعي القرار، غير أن واشنطن، على ما يبدو، لم تقرر أن تفعل ذلك، فهي ترى أن الفوضى غير المسيطر عليها في العالم العربي التي انتقلت إلى إسرائيل تستدعي الإبقاء على «قوة الإقناع» الإسرائيلية لاستخدامها في الوقت المناسب، لكن المشكلة التي ستواجهها قريباً تكمن في كمية اللاواقعية التي سوف تمتاز بها إدارة «الحكومة القومية» في حال تشكيلها في تل أبيب، والتي من شأنها أن تزيد المشاكل في وجه واشنطن، هذا إذا لم نقل إشعال حرب إقليمية جديدة وما يمكن أن يتبعها من حرب تتعدى هذا المستوى الجغرافي. فهل تتمكن واشنطن من استيعاب «جنون الأحلام الوردية» وبالتالي تدجين الوحش الأعمى الذي أطلق عليه نتنياهو اسم «الحكومة القومية»؟ هذا هو الاختبار بل الاختيار الصعب لإدارة أوباما في القريب المنظور.

إن نتيجة الانتخابات الإسرائيلية يجب أن تكون عنصر يقظة لا عنصراً يزيد العرب ضعفاً على ضعف، فهم أقوياء في الحقيقة وفي الواقع ولا ينقصهم سوى اتخاذ القرار بممارسة هذه القوة، وأول بنود هذا القرار هو طي صفحة الماضي الخلافي الأسود، والتخلي عن الاعتماد على الغير في خوض حروبهم ومعاركهم السياسية ومواجهة الواقع، فمهما هربوا أو هُرِّبوا من هذه المواجهة، فإن هذا الواقع سوف يلاحقهم إلى آخر الزمان، وإذا كان «ماوتسي تونغ»، قائد أطول مسيرة ثورية صينية في العالم، قد قال: رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، فإن الرحلة العربية إلى التوافق ووضع استراتيجية وحدة أهداف مبنية على الحقائق وليس على الأوهام مسافتها مئة ميل، أو أقل بكثير، بمقياس الزمن الحاضر، فمن سيخطو هذه الخطوة وبالتالي يعلق الجرس؟!

* كاتب لبناني